

حديث صحافي مع رئيس تحرير
مجلة (الحوادث) اللبنانية سليم اللوزي

هل كان يتنبأ ؟

في مثل هذه الأيام من العام الماضي، وبعد الاحتفال بعيد العرش، استقبلني الملك الحسن الثاني في قصره في مدينة «فاس»، وحدثني عن دوافعه إلى إرسال قوات مغربية إلى سوريا (راجع «الحوادث» العدد 854 — 23 مارس 1973) فقال : «لقد جرت في الآونة الأخيرة تحركات مختلفة في اتجاه الحل السياسي. الملك حسين زار واشنطن. بعده ذهب حافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات وقابل نيكسون. وإذا أضفنا إلى ذلك الأنباء المتزايدة عن الأسلحة المتطورة التي أعطاها السوفيات للسوريين، كان لنا أن نتوقع ضربة إسرائيلية موجهة ضد سوريا... وقد ألهمني الله أن أتيح للجيش المغربي الوقوف إلى جانب إخواننا السوريين».

وعندما زار الرئيس أنور السادات المغرب بعد وقف القتال، قال في مؤتمر صحفي : «لم يحن الوقت بعد للكشف عن ما فعله الحسن الثاني أثناء الحرب، ويوم ستحتفل السويس بانتصارها سيمكننا التحدث عن الدور الذي قام به الجيش المغربي في تحقيق النصر».

وقلت للملك : لقد تحقق نصف نبوءتك، أو ثلاثة أرباعها على الأصح. والذي لم يتحقق هو الهجوم الإسرائيلي على سوريا. مصر وسوريا هما اللتان قامتا بالهجوم. هل كان كلامك لي عن حتمية الصدام حسابات أم معلومات أم مجرد تنبؤات ؟

وكان الملك يمسك مسبحة للصلاة بين أصابعه، يشدها حبة حبة. ورفع عينيه إليَّ وفوق شفتيه ظل ابتسامة ثم قال :

ج — «حسابات... في شهر مارس الماضي لم تكن عندي أية معلومات. لقد وضعت الحقائق وأجريت الحساب المنطقي لها. وعندما تستقر الحسابات في الوجدان تتحول إلى حدس. وهذا الذي قادني إلى التنبؤ بأن الصدام العسكري واقع لا محالة».

وسكت الملك...

س — وسأله شقيقه الأمير مولاي عبد الله الذي كان في مكتب الملك عن كلمة «حدس» فأجابه الملك : «ما يسمونه بالفرنسية Intuition».

وقلت للملك : في حرب رمضان جانب يحتاج إلى إيضاح. لقد عتب العقيد معمر القذافي على الرئيس السادات لأنه لم يطلعه على قرار الحرب ولا على موعدها. وعند زيارة الرئيس السادات للمغرب بعد وقف القتال، قال في مؤتمر صحفي انكم كنتم تتصلون به شخصياً فجر كل يوم طيلة أيام المعركة للاستفسار عن سير العمليات. وعلى الجبهة السورية كانت القوات المغربية طليعة القوات المهاجمة. وهذا يعني أنكم كنتم على معرفة مسبقة بقرار الحرب وموعدها. فالهجوم يحتاج إلى تحضير. والجنرال «الصفريوي» كان على اتصال يومي بجلالتكم...

ج — لم أكن أعرف أبداً قرار الحرب ولا موعدها. وهذه نقطة مهمة جداً للتاريخ. لقد زارني اللواء سعد الدين الشاذلي في أواخر شهر أغسطس وقال لي إن القوات المصرية المسلحة تتمنى لو يرسل المغرب تجريدة عسكرية تقف معها على الجبهة. وحدد الشاذلي نوعية التدريب.

وقد استجبنا لهذا الطلب، وأخذنا نهيء القوات المطلوبة. وكان تخطيطنا أن تصبح التجريدة العسكرية المغربية كاملة العدة والتدريب في شهر نوفمبر.

فإذا بالحرب تنشب يوم 10 رمضان (6 أكتوبر). و لم تكن التجريدة قد استكملت استعداداتها، و لم تكن جاهزة من ناحية العدد ولا من ناحية التدريب. فاضطررت إلى أخذ ثلاث وحدات من القوات المسلحة الملكية، وأرسلتها فوراً، بواسطة جسر جوي مغربي استخدمنا فيه حتى طائرات البوينغ والكارافيل المدنية التي نملكها. وخلال يومين ونصف، كانت قواتنا فوق أرض مصر. وفعلا، كنت على اتصال يومي بالرئيس السادات — كما أشار في مؤتمره الصحفي — لأنني كنت حريصا على الإطمئنان على أحوال جنودنا. لقد كان الفارق كبيراً بين التجريدة العسكرية التي مشت إلى الجولان، وبين التجريدة التي أرسلناها في الأيام الأولى للحرب إلى القناة، بالنسبة للأولى، كانت لدينا فسحة كبيرة من الوقت لتزويدها بكل المصالح والقيادات والإطارات اللازمة لها، أما الثانية فكانت مجموعات هيئت على عجل، ألف من هنا وألف من هناك وألف من هنالك حتى كونّا الوحدة المطلوبة وأرسلناها. كانت الأولى مؤلفة كلها من الجنود المحترفين الذين تطوعوا للذهاب إلى الجولان... بينما اضطررنا في الثانية التي أرسلناها إلى مصر أن نضم ما يزيد عن 700 شاب كانوا مدعوين إلى الخدمة العسكرية العادية، ولم يكن سنهم يتجاوز العشرين. وهنالك فارق بين الجندي الذي قضى ست سنوات أو سبعاً من التدريب، وبين الحديث في الخدمة. ومع ذلك فقد شرفت كل قواتنا، سواء التي ذهبت إلى الجولان أم التي ذهبت إلى السويس، شرفت بلادها وقامت بواجبها تماماً... وبالرغم من أن الجنرال «الصفريوي» كان على اتصال يومي بنا، إلا أنه لم يطلعنا على قرار الحرب ولا على موعدها، وذلك انطلاقا من حقيقة معروفة، هي أن القوات المغربية، سواء تلك التي ذهبت إلى سوريا أو التي ذهبت بعد ذلك إلى مصر قد وضعت تحت تصرف القيادة السياسية والعسكرية في البلدين. ولو أخبرنا الصفريوي بموعد المعركة لوبختُه. لقد أحسن صنعاً لأنه لم يطلعني على ذلك. ولو أرسل الخبر ببرقية أو بالشيفرة لما بقي سراً. وكنت سعيدا وفخوراً به لأنه لم يفعل، لم يطلعني على السر الذي ائتمن عليه...

س — هناك قرائن يتداولها الديبلوماسيون والصحافيون تقول إن حرب رمضان كانت ضمن خطوط ستراتيجية دولية اتفقت عليها موسكو وواشنطن... ما هي معلومات جلالتكم حول هذا الموضوع ؟

ج — بصراحة، لم أفكر في هذا الموضوع من قبل، لأني لست من الديبلوماسيين ولا من الصحافيين !

وابتسم جلالته، وراح يشد حبات مسبحته...

وعدت للسؤال :

س — بعد وقف إطلاق النار، بدأ الدكتور كيسنجر رحلته الأولى إلى الشرق الأوسط ماراً بالرباط. وقد قابل جلالتكم، وجرى بينكما حديث تضاربت المعلومات حوله. البعض قال : «إن كيسنجر طلب منكم العمل على تليين التصلب السوري». والبعض قال : «إنه اكتفى برسم الحدود التي تستطيع أمريكا أن تقنع بها إسرائيل»... أي القولين أقرب إلى الحقيقة ؟

ج — لا هذا ولا ذاك. لم يطلب مني تليين الموقف السوري لسببين :

أولهما أن الموقف السوري لم يكن في ذلك الوقت صلباً ولا مرناً، لم يكن هناك مجال للإفتراض بأن موقف مصر سيكون أكثر مرونة من الموقف السوري، أو أن يكون الموقف السوري أكثر صلابة من الموقف المصري.

والسبب الثاني أن الدكتور كيسنجر يعرف أنني طرف في المعركة، ولا يمكنني أن ألعب دور الوسيط. كذلك لم يذكر الدكتور كيسنجر شيئا عن الحدود التي يمكن أن تقنع أميركا بها إسرائيل.

كل ما قاله بالحرف هو : «أنا لست من الناس الذين يطبخون في واشنطن مخططاً ليفرضوه في بقعة أخرى من العالم، وعلى مسؤولين أجهلهم حتى من الناحية البشرية... أنا ذاهب إلى الشرق الأوسط بدافع قوي وعميق لكي أحاول نسج صلات إنسانية بيني وبين المسؤولين فيه. وأملي كبير في إقناعهم بأن رغبة أمريكا في إقامة سلم كريم ودائم في المنطقة هي إرادة يعبر عنها وزير خارجيتها بطريقة رسمية وعلنية وصريحة»...
وبعد هذا الكلام راح الدكتور كيسنجر يسألني عن شخصية كل مسؤول عربي سيقابله هنالك، هل يتكلم كثيراً ؟ ما هو مزاجه ؟ كيف يفكر وما هي طريقته في التصرف ؟... كان يبدو لي أن الدكتور كيسنجر لا يريد أن يقدم على خطوة خاطئة. كانت الجدية والإهتمام واضحين في كلامه وحديثه. كان حريصاً على أن ينجح.

س — هل شرح لك، كيف تتصور أميركا إسرائيل ضمن التسوية السلمية التي تسعى إليها ؟ ألم يحاول كشف صورة إسرائيل التي يتصور أنها يمكن أن تقبل في المنطقة ؟

ج — لم يكشف تصوره ولم يشرحه... كل ما قاله حول هذا الموضوع هو «أن من غير المنطقي أن تبقى إسرائيل معتمدة على أميركا وهي على بعد 12 ألف كيلومتر عنها. إن مصلحة إسرائيل ومستقبلها أن تضمن حياتها في المنطقة، تضمن بقاءها فيها، وقبول المجموعة العربية بها. ومهمتي، أن أعمل على تنفيذ إرادة أميركا وتحقيق رغبتها في أن يتعايش الناس في الشرق الأوسط، ويتنافسوا على السلم بدلا من أن يتسابقوا على الحرب».
وقد حرصت على تنبيه الدكتور كيسنجر بأن العرب حساسون بكل ما يتعلق بالكرامة والشرف، فقال : نحن مدركون هذه الحقيقة، ونعتقد أن أية تسوية لا تقوم على الكرامة والشرف لا يمكن أن تبقى وتدوم، ونحن حريصون على أن يكون السلم دائما...».

س — ولكن الموقف لا يدعو إلى التفاؤل الذي يوحي به الدكتور كيسنجر. غولدا مائير تردد أن مرتفعات الجولان جزء لا يتجزء من إسرائيل. ودايان كان يبرر اعتذاره عن الاشتراك في الحكم بأنه لا يريد التورط بقبول أي انسحاب على الجبهة السورية، والإعتداءات الإسرائيلية تصاعد على الحدود اللبنانية... هل مثل هذا الجو ينبيء برغبة إسرائيل في الوصول إلى تسوية سلمية ؟

ج — هذه ليست للحسابات السياسية. كثيراً ما تكون الأجواء السياسية في العالم مثل نشرة الأحوال الجوية التي تقول ان الطقس متقلب وغير مستقر، ثم تظهر الشمس ويصحو الجو. ولا أخفي عليك أنني صادفت في حياتي أحداثاً ومواقف من النوع الذي يتساءل الإنسان أمامها إذا كان هناك منطق أو منطلق في المواقف السياسية، لقد اشتركت في مفاوضات جرت بيننا وبين الفرنسيين، وبيننا وبين الإسبان... وفي كثير من الأوقات، كانت تجتمع كل القرائن والحسابات على أن هنالك استحالة للوصول إلى تفاهم، وأن الفشل هو المصير المحتم... وفجأة، وبدون مقدمات، كانت الأمور تنفرج. فالمهم في مثل هذه الحالات أن نكون واثقين من أنفسنا ومن قوتنا، ومستعدين لكل الإحتمالات. فمن المسلم به أن نعمل للسلام ونبذل كل جهد في سبيل تحقيقه، ولكن دون التهاون في الإستعداد للحرب. علينا أن نحتفظ بقواتنا، بل وأن نبحث عن أسلحة جديدة ونهيء قوات أكثر استعداداً وتدزيباً. وكما يقول المتنبي :

«كلمـــا أنـــبت الزمـــان قنـــاة، ركب المرء في القنـــاة سنانـــا»

... وعلينا أن نلاحظ أن سعي الدول التسع في أوروبا لتكوين الوحدة بينها لم يمنع أياً منها من البحث في زيادة وتعزيز قواتها... وهناك حديث شريف يقول : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». فلماذا لا نستوحي الحكمة من هذا الحديث الشريف، لنعمل للسلام وكأنه آت، ونعمل للحرب وكأنها أمر محتوم ؟

س ــ وأنتم يا مولاي... كيف تتصورون الطريقة التي سيتم بها حل المشاكل القائمة بينكم وبين إسبانيا... وبصورة خاصة مشكلة الصحراء التي لا تزال تحتلها والمعروفة باسم «ريو دي أورو» ؟

ج ــ لابد لهذه المشاكل من أن تحل. ولا أعتقد أننا سنضطر إلى استعمال العنف مع إسبانيا. إن وسيلتنا لاسترجاع أراضينا المغتصبة هي بالدرجة الأولى إقناع الإسبان والرأي العام العالمي بأن وجودهم فوق أراضينا هو وضع غير طبيعي وغير منطقي وغير شرعي، وغير قانوني حتى من وجهة نظر العرف الدولي وقوانينه. إن محاولة الإسبانيين إقامة دولة مصطنعة في الصحراء، هي محاولة لتجزئة التراب الوطني المغربي لن يكتب لها النجاح، بالإضافة إلى أنها تعبر عن نوايا عدائية نحونا بدون ثمن. نحن نتحدى إسبانيا أن تفتح أبواب الصحراء التي تحتلها أمام الذين نزحوا عنها وأقاموا على الحدود من «أكدير» إلى «طنطان» لتوافق إسبانيا على أن تقوم أية هيأة دولية بإحصاء الصحراويين النازحين، إن عددهم يصل إلى نصف السكان الذين لا يزالون هناك تحت إدارتهم، وهم سيعودون تلقائيا إلى ديارهم بمجرد فتح الحدود أمامهم، ورفع الملاحقات عنهم.

س ــ يعني أنتم تؤثرون اتباع الأساليب السلمية والديبلوماسية مع إسبانيا ؟

ج ــ قال الله في كتابه العزيز : «ادفع بالتي هي أحسن. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم».

س ــ هل تسمح بأن ننتقل إلى الشؤون الداخلية ؟... لقد سجل الوضع السياسي في المغرب تحسناً واضحاً خلال العام الفائت. لقد رفعت حرب رمضان كثيراً من مكانة الحكم المغربي. ومع ذلك، وبالرغم من أنكم أصبحتم في مركز قوة، فإن الفجوة بينكم وبين الأحزاب لا تزال كما كانت، والفراغ الدستوري قائم ؟...

واعتدل الملك فوق كرسيه، وخرج بنظراته إلى ما وراء واجهات المكتب الزجاجي في قصره بفاس، وراح يدور بها في أنحاء الحديقة ذات النوافير الأندلسية، ثم قال وكأنه يتحدث إلى نفسه :

ج ــ سؤال وجيه... ولكنه يحتوي على عنصرين غير دقيقين. الأول استعمال كلمة «الفجوة مع الأحزاب» والحقيقة، ليس بيننا وبين الأحزاب فجوة ولا جفاء ولا قطيعة، لقد جرت اتصالات، ومناقشات، وعروض، وردود، لا أرى من اللائق بي كملك لهذه البلاد أن أكشف عنها وعن تفاصيلها للناس... ولكن إذا أرادت الأحزاب أن تكشف عنها بالدقة التاريخية، والنزاهة الكاملة، والموضوعية المتجردة، فنحن على يقين من أن كثيراً من الإلتباسات ستزول... أما العنصر الثاني غير الدقيق في سؤالكم. فهو قولكم «إن هناك فراغاً دستورياً». والحقيقة أن هناك غياباً للتمثيل الشعبي على الصعيد الوطني فقط. أما التمثيل الشعبي على الصعيد البلدي، وعلى الصعيد الإقليمي، وعلى الصعيد المهني فهو موجود وقائم، والممثلون يزاولون مسؤولياتهم واختصاصاتهم بكامل

الحرية. فإذا أضفنا إلى هذا، الدستور الذي هو بمثابة قانون عام للحياة السياسية والإجتاعية والقانونية، نرى أنه يضمن لكل مغربي حقوقه السياسية كاملة، من حرية عامة، وحرية صحافة، وحرية تجمع، وحرية تنقل، وحرية المحافظة على سرية المراسلات، كما يضمن استقلال القضاء... هناك جزء معطل في الدستور هو التمثيل النيابي، أما الأجزاء الأخرى فقائمة، والعمل جار بها...

س ـــ لقد أشرتم في خطاب العرش الذي ألقيتموه في الأسبوع الماضي، إلى رغبتكم بإجراء الإنتخابات، ولكنكم لم تحددوا موعداً لها...
هل ستنتظر البلاد طويلا ؟

ج ـــ إننا ننتظر الظروف الملائمة، وكل ما أستطيع قوله عن الموعد أنه ليس بعيداً كل البعد، ولا قريباً كل القرب...

س ـــ وماذا لو رفضت الأحزاب الإشتراك في الإنتخابات ؟

ج ـــ تكون متناقضة مع نفسها. فالمفروض أن تكون الأحزاب هي الإطارات السياسية للرأي العام. فإذا تهربت من المشاركة أو القيام بالدور الوطني الذي وجدت من أجله، تكون ارتكبت غلطتين : الأولى، تنكرها لدورها الوطني، لما كانت تطالب به دائماً بضرورة إجراء انتخابات. والغلطة الثانية، فسْح المجال للقول بأنها تهربت من الإنتخابات خوفاً من أن يكون عدد الناجحين من أعضائها يعد على أصابع اليد الواحدة...

س ـــ الكل يعرف أن الخلاف بينكم وبين الأحزاب يدور في حقيقته حول «أيكما يحكم». نظرتكم للحكم تقوم على أساس أن المغرب تحكمه دولة شريفة من سلالة الرسول، لها سلطة روحية وسياسية، وهي المصدر لكل السلطات. ونظرة الأحزاب تقول «إن المغرب يجب أن يتمتع بنظام ديموقراطي تكون فيه السيادة للشعب والأمة... كيف يمكن التوفيق بين النظرتين ؟».

ج ـــ لا أعتقد أن هناك تناقضاً بين أن تكون السيادة للأمة والشعب، وأن يحكمها ملك من سلالة علوية شريفة. إن القول بأن السيادة للأمة لا يعني أن كل فرد في هذه الأمة سيتولى الحكم. لابد من جهاز. لابد من نظام. وقد استقر اختيار الشعب المغربي على النظام الملكي. واستقر رأي الأسرة المالكة على أن تخدم هذا الشعب باستمرار ودون انقطاع، وجعلت من أول واجباتها أن تطور أساليب حكمها مسايرة للعصر، بحثاً عن كل ما من شأنه تدعيم هذا الحكم، وتحقيق العدالة والمشاركة مع المواطنين...

س ـــ هل يفهم من هذا الكلام أنكم تريدون الملكية في المغرب ذات سلطات رئاسية ؟ لقد نقل عن لسان جلالتكم قولكم : «لا أريد أن أكون أقل من الجمهوريين تمسكاً بالسلطات الجمهورية».

ج ـــ الحكم الموجود في المغرب هو فعلا حكم ملكي دستوري بسلطات رئاسية.

س ـــ ولكن الملكية يا مولاي موروثة، والسلطات الرئاسية منبثقة من انتخابات دورية ؟

ج ـــ وهل الإنتخابات التي تجري كل 4 أو 7 سنوات (**يشير الملك إلى انتخابات الرئاسة كل 4 سنوات في أميركا وكل 7 سنوات في فرنسا**) تضمن انتقاء الأفضل والأحسن والأكثر أهلية وتكوينا لتحمل المسؤولية ؟ في رأيي، ورأي المنصفين المتجردين، أن الملكية تضمن تكويناً مهنياً لتحمل مسؤوليات الحكم أفضل من التكوين



الحزبي. لقد مررت أنا بمدرسة قاسية جداً هي التي أهلتني لتحمل المسؤوليات العامة، هي مدرسة الوالد. وأريد هنا أن أشير إلى حقيقة يجب أن لا تغيب عن بال الذين يحاولون استيراد نظريات ليست لنا ولا تتلاءم مع أوضاعنا وظروفنا وتراثنا، وهي أن دستورنا في المغرب ينظم كيفية أخذ البيعة، فالبيعة لا تتم لأكبر أولاد الملك سناً، إنما تعقد لأحسنهم. فالوراثة ليست أوتوماتيكية بل هي أيضاً تهيئة وأهلية. ولهذا نص واضح في دستورنا...

س ــ ووجدتها مناسبة لإعادة ما كنا تحدثنا عنه في العام الماضي، فسألت الملك :

ألا تعتقد يا سيدي أن وضع نظرية ثالثة تستولد من التراث الإسلامي العربي ومن تجارب الحضارات الحديثة هو أفضل سبيل لمنع أو التخفيف من استيراد النظريات التي ليست لنا ولا تتلاءم مع أوضاعنا وظروفنا ؟

ج ــ لقد حاول عبد الناصر وأخفق. استهوته التعاريف الخلابة الجديدة عن استلهام التراث العربي الإسلامي ورؤية واقعه؛ إن البلاد العربية تشبه الخريطة الجغرافية، فيها هضاب، وفيها سهول، وفيها قمم. وهي ليست على مستوى واحد، ان الحكم على الأشياء هو فرعُ تصورها. وتصور الواقع، ومعرفة الحاجات، والتقدير الصحيح لما تتطلع إليه أمتنا، هي المدخل الطبيعي للبحث عن الحلول. ان كل ما يحتاجه العرب اليوم هو تجديد نظرياتهم، تحديث الوسائل، تطوير أساليب تفكيرهم لتكون لديهم الأدوية والعقاقير الحديثة القادرة على معالجة الأمراض الجديدة... لو كان «موتسي تونغ» مسلماً وعالماً بالنظريات الإسلامية، لما كان في حاجة إلى أن يرهق نفسه لإبتكار البديهيات. إنه يقول على سبيل المثال «الجماهير بالنسبة للثورة، مثل الماء بالنسبة للسمك». في السيرة النبوية والقرآن فلسفات وفلسفات يمكن أن تكون مصدراً لكثير من النظريات الأكثر عمقاً من مثل هذه البديهة...

س ــ وسرح الملك بأفكاره بعض لحظات، كانت أصابعه تسحب حبات المسبحة بطريقة تدل على أنه يوشك أن يقول قولا غير عادي، ثم استطرد :

ج ــ يقول أهل الإجتهاد إن الفقه ينقل ولا يتعقل. أنا أقول ــ وهذه نظرية شخصية ــ ان الفقه ينقل ويتعقل، فإذا كانت هناك ديانة سماوية تتحاشى النقل بل وتتحاشى أن تورث عقيدتها كما يرث الإبن دار أبيه فهي الديانة الإسلامية. إنها ديانة بلا أسرار. ومن أجل ذلك فهي تتطلب من معتنقيها جهداً يومياً للبحث. والذين يقولون ان في العقيدة الإسلامية ثغرات، هم الذين يجهلون أعماق الفلسفة الإسلامية. فالإسلام ليس الصلاة ولا الصوم ولا الإغتسال ولا حج بيت الله فقط، بل هو كما قال النبي «الدين المعاملة» ولم يقل «الدين العبادة». والمعاملة هنا لا تعني المعاملات والعلاقات بين الأفراد من بيع وشراء وما إلى ذلك، بل تعني المعاملات التي نسميها الآن بالتعريف العصري «المعاملات العامة». أي واجبات المجتمع نحو الفرد، وواجبات الفرد نحو الجماعة. إنه ما نسميه «القانون العام». ولذلك قلت وأكرر القول بأن الدول العربية غير محتاجة لاستيراد فلسفات، ولا إلى وضع نظريات ثالثة أو رابعة أو خامسة. إن حاجتها تنحصر في تطوير العقاقير، في ابتكار أصناف جديدة لها، في تجديد وتغيير أساليب استعمالها حسب الحاجة وعلى ضوء التجربة وتطور أساليب الكشف عن الأمراض. وكما قلت، إن الديانة الإسلامية هي من أسهل وأصعب الديانات في وقت واحد. إنها تتطلب جهدا يوميا مستمرا للبحث. لقد قال الله في كتابه «ما جعل عليكم في الدين من حرج». وقال النبي ﷺ «الدين يسر وليس بعسر». وقال أيضاً «لن يحاجَّ هذا الدين أحد إلا غلبه». إن باب السؤال، وباب المناقشة، وباب البحث، مفتوحة في

الإسلام. هناك بعض الأسئلة يحرم طرحها عند المسيحيين واليهود، ولا يمكن أن يطرحها ويناقش فيها إلا رجال الدين. ومن هنا قلت : ليس في الإسلام أسرار، وأنه يحتاج إلى جهد وإرهاق... ولكنه إرهاق حلو لا إرهاق مر، لأنه إرهاق العالم الباحث الذي يجهد فكره يومياً...

س ـــ وما سر النكسة التي أصابت العرب والمسلمين يا مولاي ؟

ج ـــ لقد نكب العرب والمسلمون مرتين. النكبة الأولى كانت الحكم العثماني. لقد مسخ العثمانيون أيام حكمهم الروح العربية مسخاً تاماً. هذه النكبة لم ننهض منها إلا على يدي الإمام محمد عبده والأستاذ رشيد رضا، ومحمد عبده وتلامذته من بعده، هم الذين تنبهوا لضرورة إغاثة الروح الإسلامية التي مسخها العثمانيون. ومن حسن الحظ أنهم عالجوها بأسلوب علمي منهجي... أما النكبة الثانية، فكانت الإستعمار الأوروبي. لقد جاء ليجد العرب مثل الجسد العاري لا ثياب عليه، فألبسه أنواعاً من الثياب التي حملها معه، والتي كانت مطابقة لعاداته وتصوراته وبرامجه المختلفة... ومن هنا فأنا أقول «إن من فضل الله علينا سبحانه وتعالى، أننا ما زلنا مثلما لا نزال»...

س ـــ هل تسمح ياسيدي بأن ننتقل من العموميات ؟ أنتم تقولون وترددون شعار «الإشتراكية الإسلامية المغربية». ما هو محتوى هذه الإشتراكية ؟ وبماذا تتميز عن الإشتراكيات الأخرى ؟

ج ـــ الإشتراكية الإسلامية تنطلق من مبدإ «الحفاظ على كرامة الإنسان» ففي القرآن نص صريح يقول : «ولقد كرمنا بني آدم». ومنذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، لم يكن أحد من الخلفاء المسلمين ولا من تبعهم بحاجة لإصدار وثيقة يعترف بها بحقوق الإنسان، فكما قال رسول الله : «المؤمنون سواسية كأسنان المشط»... إذن، انطلاقاً من مبدإ «الحفاظ على كرامة الإنسان» ومن مبدإ «ضمان الحقوق الأساسية للجميع» وهما مبدآن نجدهما في كل باب من أبواب كتاب الله والسنة النبوية، نستطيع أن نعترف ونعطي كل مسلم فرصاً متكافئة، وحظوظاً متساوية، ثم نتركه يجتهد ويحتفظ بمبادراته.... نحن لا نقسم المجتمع كما كانت تقسمه أوروبا إلى ثلاثة أقسام : النبلاء، ورجال الدين، والرعية. فالإسلام ليس فيه طبقية، ولا تمييز بين الناس، ولا تفضيل لأحد على آخر. إن مبدأ تساوي الفرص، والحفاظ على كرامة الإنسان هما من صلب العقيدة الإسلامية...

س ـــ سمعت أنكم نفذتم في مصانع السكر هذه التجربة الإشتراكية، وقد قيل لي انها ارتكزت على تمليك الفلاحين المنتجين لشمندر السكر أسهم هذه الصناعة، وأعطيتم عمال هذه المصانع عشرة في المئة من الأرباح... أي أنكم أنشأتم المصانع ثم ملكتموها للفلاحين والعمال : للفلاحين الملكية، وللعمال جزء من الأرباح... هل هذا هو التطبيق العملي لشعار الإشتراكية الإسلامية المغربية ؟

ج ـــ هذه تجربة، ولكنها ليست كل التجربة. نحن ـــ كما قلت لك نرى المشكلة فندرسها، ونتصوّر حلولا لها على ضوء المبادىء التي شرحتها لك، ثم نضعها موضع التنفيذ... فإذا برهن التطبيق على صحة العلاج، مضينا فيه واعتبرت التجربة ناجحة، وإلا صححنا الخطأ الذي يظهر في التطبيق... نحن لسنا أسرى نظريات ولا صيغ جامدة.

س ـــ بمناسبة الحديث عن شؤون الإقتصاد... أشرتم في خطاب العرش الأخير إلى وجود الأحجار النفطية في بلادكم، وأعلنتم عزمكم على استثمارها... مثل هذه الأحجار موجودة في الولايات المتحدة، ومع ذلك لم تعمد حتى الآن إلى استخراج الطاقة منها...

ج ــ في الولايات المتحدة مشكلة لم يتيسر حلها بعد، هي مشكلة أخطار تلوث الجو. وهذه المشكلة ليست موجودة في المغرب. أما مشكلة ارتفاع كلفة الإنتاج، فقد حلها ارتفاع أسعار النفط. لقد قدرت تكاليف الإنتاج عندنا بما يتراوح بين الـ 8 و الـ 10 دولارات للبرميل، وهو أقل من السعر الحالي لبرميل البترول. وكيفما كان الحال، فالعملية مجزية اقتصادياً... ثم هناك جانب آخر في هذه العملية. في داخل الحجر النفطي، كميات كبيرة من الإسمنت، والفحم، والكبريت، وكلها مواد ضرورية. إننا بحاجة للكبريت ــ الذي نستورده من الخارج ــ في صناعة إنتاج الفوسفات. كذلك نحن بحاجة للفحم في مصانع الحديد والصلب في منطقة «الناظور»، وهذه كلها إمكانيات لتشغيل ما بين 20 إلى 30 ألف عامل. نحن الآن نستهلك نفطاً بقيمة 1800 مليون درهم سنوياً (حوالي 360 مليون دولار) ندفعها كلها بالعملة الصعبة. ومصنع استخراج البترول من الأحجار النفطية سيكلف 250 مليون دولار ــ كما تقول الدراسات ــ وهكذا ترى أن العملية رابحة مئة بالمئة. والإقدام على أية صناعة قد تبدو غير مجزية حالياً، إلا أنها ستكون في المستقبل مجزية وكثيرة الفوائد الإقتصادية. فعندما قررنا إنشاء صناعة السكر، كانت الدراسات تقول ان كلفة التصنيع ستكون أعلى من ثمن الإستيراد. ومع ذلك أقدمنا على التصنيع لفوائده الإقتصادية والإجتماعية العديدة. وما أن قامت صناعة السكر حتى ارتفعت أسعاره في الأسواق العالمية، وأصبح أعلى من كلفة الانتاج ، بالإضافة إلى أن صناعة السكر قد خلقت مجالات اقتصادية وفلاحية جديدة، وفسحت المجال لتهيئة فرص الشغل لآلاف من أبنائنا . إن الحاجة للمواد الأولية تزداد سنة بعد سنة، وبالتالي فإن أسعارها ترتفع باستمرار...

س ــ الذي سمعته من المختصين، أن المغرب بحاجة إلى استثمارات خارجية من أجل تنفيذ الخطة الخماسية. وفي بلاد المشرق العربي تراكمات نقدية متزايدة تبحث عن أماكن صالحة للإستثمار... لماذا لم تقم الدولة حتى الآن بوضع القوانين والتعريف اللازم بأحوالها ومشروعاتها وإمكانيات الإستثمار الهائلة فيها، خاصة بالنسبة لإخوانكم في المشرق ؟

ج ــ وضعنا قانوناً في الآونة الأخيرة للإستثمارات، أظن أنه لا مثيل له في الدول النامية. وبعد الآن سنفتح ملفاتنا أمام دول المشرق. ستسافر خلال الثلاثة أشهر المقبلة عدة لجان مغربية إلى ثلاث دول عربية حاملة معها مشاريع مفصلة لتضعها أمام الذين يريدون استثمار أموالهم. نحن الآن في مذاكرة مع المملكة العربية السعودية، ومع الكويت، ومع بعض دول الخليج. وقد أعرب العراق بطريقة جدية عن رغبته في تمويل كثير من المشاريع الصناعية في المغرب... فكما عرفت وشاهدت وتأكدت، لدينا إمكانيات لا حد لها للإستثمار...

ــ في هذه اللحظة، ارتفع صوت المؤذن في القصر، يؤذن لصلاة العشاء، فوقف الملك للصلاة...

كان لقاؤنا في القصر الملكي بفاس، في جناح الحسن الأول جد الحسن الثاني، الذي سمي باسمه تيمنا به، وأملا بأن يكون الحسن الثاني استمراراً لجده الحسن الأول، الذي يقول عنه المؤرخون «لقد كان عرشه فوق جواده».

وعندما خرجت إلى حديقة القصر، ووقعت عيناي من جديد، على النقوش الأندلسية الرائعة التي تطالع الزائر في كل مكان، وكل زاوية من زوايا القصر... قفزت إلى ذاكرتي صور ما رأيته ذلك الصباح، عندما زرت قصر الضيافة في فاس. إن ذلك القصر هو آخر ما ابتدعته العبقرية المغربية في فنون العمارة والزخرفة الإسلامية الأندلسية. الخطوط الأصيلة واحدة لا تتبدل، ولكن التطوير والتطعيم والإبتكار استولدت

ألواناً ونقوشاً وأشكالاً جديدة لم تكن معروفة بالأصل، وجاءت أكثر روعة من الألوان والنقوش والأشكال التي رأيتها قبل أسبوع في قصر الحمراء بغرناطة.

وقد أكد لي كل من تحدثت معه في هذا الموضوع، بأن تجديد التراث في العمارة والنقش والزخرفة كان من الإهتمامات الشخصية للحسن الثاني، وأنه هو الذي أوصى باستيلاد ألوان جديدة للزليج، وهو الذي أوحى بالخطوط الجديدة التي حافظت على أصالة الماضي، وجاءت أكثر روعة وبهاء منه...

وأنا أغادر حديقة القصر الملكي في «فاس» تتجاذبني نقوشه ونقوش قصر الضيافة، تساءلت : «هل يوفق الحسن الثاني بابتكار وتجديد واستنباط النظرية الحديثة من أصالة التراث الإسلامي ونظرياته الغنية، فتجيء ملتصقة بالماضي، لا منفصلة عنه، ومستجيبة لحاجات الحاضر، وتطلعات المستقبل ؟».

الجمعة 20 صفر 1394 — 15 مارس 1974